

المشهور « سير الإنسانية العظيم نحو وحدة عالمية ». وهذا هو مذهب الدكتور . وموضوعه كثير الأبواب والأصول ، متشعب الأطراف والحواشي ؛ وإيفاء بيانه وأدلتها يملأ سرفراً فزائداً ، ولا طائل وراء الإطالة فيه

يقول الدكتور في فاتحة احتجاجه : « لا شك أن أحداً من الدول المشتركة في هذه الحرب القائمة لم يكن يرغب في إمارتها » لكنه يقول في منتصف مقاله : « تشيع العقيدة في نفس بعضها (الدول) أنها أقوى من غيرها بأساً وأسمى عقلاً وأرفع منزلة وأوسع علماً . ولهذا وقعت الحرب الحالية لا تقسام العالم إلى دول عظمى وامبراطوريات كبيرة تتنازع على السيادة والسلطان » صحيحاً ! لم ترغب دولة في هذه الحرب ، وقد نشبت ، إذ اعتقد بعض الدول أنه أقوى من غيره ، فنازعه السيادة ، ومن أراد الهيمنة أراد الحرب . أفلا يبدو أن في هذا الكلام تناقضاً يلتقي به معنى الجملة الأولى منه ؟ وفي الجمل التالية إشارة واضحة إلى ألمانيا ، إذ المعروف أنها ابتدأت بالاعتداء على غيرها وأرادت أموراً حققها بالقوة وهي عالة بأن إرادات أخرت تعارضها . وقد علمها كلز ووتر^(١) أن غرض الحارب هو إخضاع إرادة

(١) شارل ده كلزوتر (Charles de Clausewitz) القائد الكاتب الحربي البروسي والكلمة في كتابه عن الحرب ، وهو معروف معبر

السلم العالمية حلم الأبد

للأستاذ توحيد السلحدار بك

جاء في (العدد ٥٩٥) من « الرسالة » مقال ظريف للدكتور أحمد فؤاد الأهواني عنوانه « السلم العالمية حلم قريب الأمد » . وليس هذا من المستغرب : فإن الآراء مختلف ، وكثيراً ما أيد الناس أحبا إليهم ، أو أقربها إلى لون ثقافتهم ، أو أصلحها لسياستهم . وقد نشط القائلون باتجاه الإنسانية نحو السلم العالمية أو بقرعها بعد الحرب الكبرى السابقة ، ومنهم مثلاً : ديفز^(١) ، وكرونيجو^(٢) ، وويلز^(٣) الذي يصف بكتابه

(١) دافيد ديفز (David Davies) ، في كتابه المسمى « مشكلة القرن العشرين » (Le Problème du XX^e Siècle) .

(٢) مريانو . ه . كرونيجو (Mariano H. Cornéjo) وزير الأرجنتين وعضو مجلس جمعية الأمم سابقاً ، في كتابه : « توازن القارات » و « الكفاح للسلام » .

(L. Equilibre des Continents. 1932 et La Lutte pour La Paix. 1934) , chez Félix Alcan.

(٣) هربرت جورج ويلز (Herbert George Wells) في كتابه المسمى « خلاصة التاريخ العام » . (Esquisse de l'Histoire universelle) .

أن يصرفنا عن تنقيمه ، فهو ليس منبع الشر وإنما منبعه أنه لم يشق عند كافة أفراد الأمم اللحظة ، بل عند نفر قليل منها هم الذين قوضوا التقاليد . والتقاليد في الحق ليست من ضرورات الحياة الاجتماعية إلا بحكم أنها تحمل عند غير المثقفين محل النظام العقلي والروح العلمية اللذين أشرنا إليهما ، وعند ما تستطيع أمة من الأمم أن تدعي أن كل فرد من أفرادها يملك ذلك النظام وتلك الروح قلن يربها عندئذ أن تضع تقاليدها

وهكذا نستطيع أن نخلص إلى أن الثقافة الحقيقية دعامة قوية من دعائم الأخلاق في حياة الأفراد وحياة الأمم على السواء ، وإنما تأتي السكوارت عند ما تنخبط في فهم معنى الثقافة ومدى انتشارها بين الأفراد الذين يكونون أمة واحدة الثقافة ضوء ولا بد للضوء من أن يبدد الظلمات .

محمد منصور
المحامي

ما تجده عند اليونان والرومان والحرب على السواء ، فما السر في ذلك ؟ يتخيل إلى أننا نجد الجواب في أسرين : أولهما : أن الأمم لا تحيا بالثقافة النظرية فحسب ، وإنما تحيا أيضاً بتقاليدها . وثانيهما : أن للثقافة النظرية نوعين من النشاط : نشاط هدم ونشاط بناء . فعند ما يسبق التفكير الفردي التقاليد ويأخذ في تناوُلها بالبحث ومناقشة الأسس ، لا بد من أن يقوضها ، لما هو معروف من أن كثيراً من التقاليد لا تقوم على أسس نظرية قوية بل تستند في الغالب إلى مواضع اجتماعية خلقتها عصور موعلة في الظلام . وإذا كان العقل قادراً على الهدم فهو أقل قدرة على البناء ، وبخاصة بناء التقاليد ، وتلك لا يكفي في تدعيمها النظر المجرد بل لا بد من أن تطرد بها الحياة حتى تنزل من الناس منزلة الماديات الآلية ، وهذا أمر يحتاج إلى زمن طويل . وهكذا نفس انحلال الأمم : عقل يهدم ثم لا يستطيع لساعته أن يقيم بناء على الانقاض . وإذا كان العقل يقوض من دعائم الأمم ، فإن ذلك لا ينبغي

عاطفة وطنية، وحساسية قومية، وآراء مشتركة بينهم، وشعوراً بالمصلحة العامة، ملاحظاً في كلامهم واستعدادهم للدفاع عنها، وأن الرأي العام وإن كان دون الرأي الفردى أو أكثر منه تعرضاً للخطأ، يؤثر تأثيراً قوياً في الحكام والوعاء، لأن البيئة تؤثر في الأفراد كما تتأثر منهم، وأن الانانية سرّدها الأخير في التحليل النفسى غريزتها حفظ الذات وحفظ الجنس، وإذن فهى الأناس العميق في الفرد وفي الجماعة، سواء ظهرت أو سترتها التربية والآداب. زد أن الإنسان منذ ظهر على هذه الأرض قد جعل نغره في توسيع معاركه وزيادة أخطارها، وهو يرفع عقيرته بالسلم، بل يخيل إليه أنه يريد أن يمشى فيه، ولكنه لا يريد بشدة كافية لحفظه، والتزامه الطيبى الشامل يحتم تضاد القوى، ولو خفف الإنسان بعض أساليبه. أما الأحلام السكالية، فإنما قربها في الكلام وشبه المنام

يقول الدكتور: «الدليل على نقض تلك الحجة النفسية نفور الجند في هذه الحرب الحاضرة» وهم يحاربون، لأنهم «جماعات وكتل بشرية تترك في الميادين».

يريد، على ما يبدو، أن الجندى النافر يسيطر عليه روح الجماعة في هذه الكتل فينساق معها إلى المحاربة. وهذه حجة لا بد أن تكون حقيقة علمية دقيقة، لا بدركها إلا كل من درس علم الاجتماع. لكن الذى لم يدرس قد يظن أن روح الجماعة، وإن كان دون روح الفرد، يكون أحياناً أنبل من أرواح أفرادها، كروح الجمعية الوطنية في الثورة الفرنسية الكبرى، إذ أعلنت الجمعية حقوق الإنسان، مثلاً، ونزل النبلاء فيها عن ألقابهم ومميزاتهم. وقد يوجب القارىء لروح أولئك الجنود المتكلمين، وهو ناتج من أرواحهم النافرة من الحرب ونافر بالضرورة من هذه الحرب، كيف يدفعهم إليها وهم كتل مسلحة متجمعة في الميدان وفي المسكرات، ففى وسعها العصيان بروح الكتلة المسيطر

هذا، والأمم مجاميع أفراد، والفرد يؤثر في البيئة ويتأثر منها، كما ذكر آنفاً، والحياة ميدان قتال. فالقبائل ليس فيها نظام الحكومات والجندي، وإن كان الاحتكام عندها إلى شيوخها، وعادتها النزو، يجمع له الأفراد مختارين للسلب والسبي، وطلب المرمى والماء؛ وشيمة هؤلاء الأفراد النازلة وأخذ الثأرات النيمة. والذين فتحوا الولايات المتحدة الأمريكية من محيط إلى محيط، تقاتلوا فيما بينهم وكل منهم يحمى أرضه ويوسمها،

العدو لإرادته هو. وإسكايمنصو^(١) قوله: «سواء كانت الحرب استراحة من ملهامة السلم، أو كان السلم استراحة من مأساة الحرب، يبقى مقراً أننا نقبل معاناة محنها الدامية، حتى إننا ننشدها، ويمرنا فوق ذلك أن نفخر بها». ولا حاجة إلى مزيد بعد أن جاء المحتج بدليل وتقيضه في آن معاً. ثم يقول الدكتور: «إن أصحاب العروش وذوى التيجان وأقطاب الدول والزعماء المحركين للشعوب، يتصلون من تبعة الحرب، ويقرّون من إعلانها، فلا شك أن هذا دليل يحمل في طياته النزعة القوية إلى السلام».

والصواب الذى يستقيم ههنا مع حقائق الواقع في الإنسانية -إنما هو أنهم «يتبرأون» ستراً لظمهم وأغراضهم، و«يتصلون» دفعاً للتبعة إن هم قهروا، وتبريراً لظمهم وإذلالهم عدوهم إن هم قهروا، وتضليلاً عن سوقهم الأمم إلى الجأزر وعن سبيل سياستهم؛ ولم يكونوا يوماً لينزعوا إلى «السلام» حين يخالف مصالحهم الحيوية وهم قادرون على الحرب، أو يحول دون مطامعهم الحقيقية، شخصية كانت أو قومية. فليس يصح في الأذهان أن ما تقدم دفعه من الكلام «يشر بتحقيق هذا الحلم»، كما يظن الدكتور وإن قال: «ستقع الحرب في الجيل المقبل... وقد تقع بعد جيل آخر»، ليس غير.

ثم رأى الدكتور في نظارته إلى أسباب الحرب «أن ذكر طبائع الفرد وخصائصه... بصدد حرب بين دولة وأخرى حجة نفسية لا تستقيم، لأن «طبائع الجماعة تختلف عن طبائع الفرد كما هو معروف لكل من درس علم الاجتماع».

لكن عندنا دكتور آخر كتب مرة أن الآراء التى سمعها «من أساندة السربون في علم الاجتماع وعلم النفس» هراء. وما التذكير بهذا التقرير إلا لتنبيه من قد يحب أن ينغم النظر في الملمين ليتذكرها أو يعتبرها، ويرى هل يتحقق أنهما عند ذكر أسباب الحرب، لا يسمحان بالجمع «بين الدوافع النفسية في الفرد وبين العلاقات الدولية وتنافر مصلحة الجماعات». فإن الذى يجملهما، أو يقرأ كلاماً فيهما ويفوته فهمه كل الفهم، قد يظن أن الأفراد، خصوصاً في الأمم الحية المتعلمة،

(١) جورج كليمنصو (Georgea Clemenceau)، الطبيب، الكاتب، الصحفي، السياسى، الوزير الفرنسى المشهور؛ واجلة بالصفحة ٤٧٣ في الجزء الثاني من كتابه الفلسفى «في مساء الفكر». (Au Soir de la Pensée).

مقتطفها ، فإنها أمور ليست في شيء مما يدل على أن الفطرة البشرية لم تتغير ذلك التغير ، وإن كان مما يُسَلَّم به الدكتور أن الأفراد داخل الدولة « تسود فيهم غرائز الكفاح والأثرة والمغالبة والنزوع إلى السيطرة والسلطان » ؛ إذ أنه يقول : « قد اقتضت الحضارة والمدنية أن توجه هذه النزعة إلى كفاح الحياة والتغلب على عقبات المعيشة وتذليل البيئة المحيطة بالإنسان وتسخيرها لمصلحته ودفع عدران الأمراض والأوبئة »

فكان الحكماء أو شكوا أن يصبحوا حكماء ، والمحكومين أن يصبحوا قديسين ! ذلك هو ما يؤخذ من تطبيق علمي النفس والاجتماع فيما يبدو من كلام الدكتور . غير أن كليمنصو يقول : « إن المحاكم لا تستطيع أن تشفي الناس من اقتراف القتل في السلم ... ومنذ أقدم الأزمان إلى أيامنا هذه ، لم نعرف بعد غير الدم كفسارة عن الدم ؛ والسكامة الأخيرة لمدينتنا صاحبها الجلال على ما يفهمنا كجريف دة مستتر (١) »

على أساس الكلام الذي تقدم النظر فيه ، وهو أساس ليس يتحمل ما شُيِّد عليه ؛ يقول الدكتور : « الحرب تقع بين الدول لا بين الأفراد » ؛ فالسألة في السلام هي خضوع الجماعة لحكومة واحدة ونظام واحد ، لأن الحرب تقع بين الدول لا بين الأفراد ؛ فهل يصبح العالم بأسره خاضعاً لحكومة واحدة ، وتتحول النزعة الوطنية إلى دولة واحدة وعالم واحد ونظام واحد ؟ ؛ ثم يجيب عن السؤال بمرض الأمور التي يراها خطوات في سبيل « توحيد العالم » ومنع الحرب ، لأن « العلة الأساسية في الحروب هي انقسام العالم إلى دول تنطوي على نفسها وتحفظ كل واحدة منها بشخصيتها المستقلة »

وهذه حجة وهمية : فالدولة العالمية حلم قديم تنفي به فريق من عشاق السيادة الشاملة إرضاء للشهوات ، لا توخيا لخير الإنسانية ؛ وهو كذلك حلم الشيوعية ، وقد يكون حلم الشيوعي عن يقين أو غير يقين . مع ذلك يقول الدكتور إن « الخطوات التي يخطوها العالم في سبيل التطور والوحدة خطوات سريعة جداً (كذا) هي التي تجعلنا نقول إن السلم (العالمية) قريبة الآن » فهل يُسَلَّم الناس بأن الإنسانية قد أصبحت على باب دولة الفارابي المثالية الشاملة للأرض المكونة بأسرها ، كما صورتها

وقاتلوا الهنود والحيوان أفراداً ثم جماعات قبل أن ينظموا ولايات منفصلة فتحدت . وما القول في المرتقة قديماً والمتطوعين حديثاً من أمريكيين وبريطانيين وسواهم ، كما تطوع ككتشنر لفرنسا في حرب سنة ١٨٧٠ ؟ وأرض الأهل حيث يفتح الفرد عينيه لنور الحياة بين قلوب تتجئن عليه أرض تحببه إياها وتسمو به في كل أمر حتى يضحي بنفسه وبذوى قرياه في سبيل وطنه إرضاء لمعنى مثالي في فؤاده لا يقبل البحث . والأمثلة وافرة : رجال المقاومة والمصابات الأهلية في فرنسا وبولونيا وغيرها ، والذين يفرون من الأسر ، وبركبون الأهوال في سبيل العودة إلى صفوفهم مختارين ، والذي يُقطع نصفه في الحرب فيخرج من المستشفى مُلحاً في طلب طائرته ليعود بنصفه الباقي إلى القتال ، والحال النفسية البادية على أرجح الجنود من شتى الأقطار وهم آتون غادون أمام أعين الناس ، وهي حال لا تدل على تأفف أو استياء ، بل تدل على الارتياح ، واحتشاد الأهالي في الثورات والحروب الأهلية — وهي في الإنسانية أكثر من الحروب الدولية — لمحاربة السلطات القائمة والجيش بما نصل إليه أيديهم من الآلات

لكن هناك « أبلغ دليل في هدم كيانه » القول « بحب الكفاح وتغلب الغريزة والشهوة والأنانية »

ذلك الدليل الأبلغ في نظر الدكتور ، هو « أن الأفراد يفتشون في داخل الدولة الواحدة ... وتسود فيهم بطبيعة الحال غرائز الكفاح والأثرة والمغالبة والنزوع إلى السيطرة والسلطان (كذا) ، ومع ذلك تعيش هذه الجماعة الواحدة كخليفة النحل ... دون أن تقع بينهم معارك دامية ، إلا ما يحدث من الخصام المعروف بين الأفراد الذي يحله القانون ويقضيه الأمن والنظام . والبوايس والقضاء كفيلا أن يضبط الأمن وحفظ النظام » فلا يتوهن متوهم ، بعد هذا الدليل ، أن تضارب فردين ، أو جماعتين ، أو قريتين ، ولو قتل أناس منهم — لسبب كالغيرة مثلاً أو السطو أو الانتخابات الديمقراطية — بعد « معركة دامية » ، إنما هي تضارب داخل حدود الدولة ؛ وإن أبطل القضاء والبوايس ، أي القوى المانعة الرادعة الداعمة وجوباً داخل « خليفة النحل » ، فإن أفرادها لا يتقانون بدوافع جبلتهم البشرية لتفكيرها بالمدنية ، حتى أصبحوا نافرين من الاقتتال ، لا يحاربون إلا مكرهين في ميادين الحروب الدولية . أما ظلم ذوى القربى وشتى الجرائم التي يدرك أولاً يدرك البوايس والقضاء

(١) يوسف ده مستر (Joseph de Maistre) فيلسوف فرنسي مشهور . وكلام كليمنصو بالصيغة ١٨٧٠ في الجزء الثاني من كتابه المذكور في هامش سابق .